باب التقريظ والانتقاد

سياحة في غربي اوربا

لجناب نسيم بك خلاط

الرحلات من اقدم الوسائل لجمع المعارف لجأ اليها المصريون واليونانيون من قديم عهدهم ولا يزال كتاب شيخ المؤرخين هيرودوتس شاهداً على انها اصح الوسائل لجمع اخبار الامم ووصف احوالهم ولا سيما اذا كان الرحّالة دقيق النظر واسع الروية يقف عند تقرير الحقائق خالية من شوائب الاوهام والاضاليل لهُ عين نقّادة لا تكتفي بوصف ما ترى بل تقابل بينهُ وبين غيرهِ وتقيس بعضهُ على بعض فتستخرج منهُ القواعد الكلية والاحكام العمومية

وكُتب الرحلات من افكه كتب المطالعة واكثرها فائدة . لم نكد نحسن القراءة العربية حتى وقعت في يدنا رحلة المرحوم سليم بسترس فقرأناها مثنىً وثلاث ورباع قبل ان قرأنا كتاباً آخر ولما رحلنا الى اوربا اول مرة ونشرنا رحلتنا فصولاً في المقتطف والمقطم طالَبنا كثيرون بطبعها ونشرها على حدة لا لمزية فيها بل لما تجدهُ النفس من الفكاهة في كتب الرحلات

وقلَّما طاف كاتب في بلاد بعيدة عن بلادهِ الأودَّ ان يصف ما رآهُ فيها لابناء وطنهِ ولذلك لم يكد الكتّاب يكثرون في هذا القطر والقطر السوري ويكثر الراحلون منهما الى اوربا حتى توالت كتب الرحلات ومحور الاختلاف فيها اختلاف اصحابها في قوة الملاحظة والانتقاد والوجوه التي اتَّفق لهم ان نظروا منها . والرحلة التي امامنا الآن سفر جليل خطتهُ يراعة رجل حكيم واسع الاطلاع دقيق النظر عرف تواريخ الامم الحاضرة والغابرة ودرس طبائع الناس واساليب عمرانهم وميز بين النافع والضار منها . قام من طرابلس الشام مسقط رأسهِ منذ سنة من الزمان فمرَّ على بيروت وبورت سعيد والاسكندرية ومرسيليا وليون ونزل في باريس مدة شاهد فيها معرضها ومعالمها الكثيرة . ثم مضى الى لندن ولفربول ومنشستر وعاد بطريق سويسرا وايطاليا فوصف ما مرَّ بهِ من مدنها ولا سيما مدينة ميلان ورومية وخرائب بومبي ووصل الى الاستانة فوصفها بما يحتملهُ المقام من الاسهاب وعاد الى طرابلس بطريق رودس وقبرص

وبعض الوصف مسهب جداً على ما يقتضيهِ المقام كوصف باريس ومعرضها ومعالمها فانهُ

استغرق نحو اربعين صفحة وبعضهُ موجز كوصف المدن الصغيرة في سويسرا وايطاليا وكلهُ لا يخلو من الفوائد التاريخية والانتقادات الاجتماعية . بدأ بمدينة بيروت فقال انها اخذت تتسع من حين وُضع الحجر الصحي فيها على عهد ابرهيم باشا المصري فاصبحت اسكلة سورية حينئذٍ وكان المراد ان يوضع في طرابلس الشام فابتهُ لجهلها منافعهُ . ووصف اهاليها الذين نزلوا اليها ثمَّ يجاورها واستوطنوها بانهم كانوا اولاً خليطاً من السكان لا جامعة بينهم غير اللغة ووحدة المقصد والمسعى وليس فيهم صفة القوم العريقين في العوائد والشؤون بل يرى كأن اخلاقهم وازيادهم مستعارة ممَّن خالطهم من الطوائف المختلفة التي حلَّت بين ظهرانيهم لكن لم يثبت هذا التقليد طويلاً بينهم بل تحوَّلوا عنهُ الى ما هو خير منهُ وابقى لجمعهم بين هيئة الغرب وجدهِ وسماحة الشرق وكرمهِ جمعاً قصَّرت عن مثلهِ كل مدن الشام . وبعد ان اسهب في مدحهم على هذا الاسلوب استدرك قائلاً " لم يبقَ لرائيهم او للمؤرخ ما يأخذهُ عليهم سوى ان اغنياءهم لا يهتمون بانشاء الشركات التي قام عليها وحدها نجح الامم ولا يعنون بالمشروعات الآيلة لخير اوطانهم وخيرهم " . وحبذا لو ذكر السبب الاكبر الذي يمنع البيروتيين وغيرهم من انشاء الشركات والمشروعات العمومية فقد كنا نتذاكر في اواخر الصيف الماضي مع رجل من اكبر اغنياء بيروت ونذكر قصرهُ الجميل فيها فاكَّد لنا انهُ لن يعود اليهِ وانهُ يود ان يبعهُ لكي لا يبقى لهُ عقار فيها وقد جعل وطنهُ القطر المصري لما يرى فيهِ من راحة البال وانتظام الاحوال

وانتقادهُ على الاوربيين شديد حيث يرى الى الانتقاد سبيلاً ومدحهُ لهم مبني على حقائق راهنة . قال عن الهيئة الاجتماعية في غربي اوربا ما نصهُ

" ان من اطلق النظر على حالة شعوب هاتيك الممالك قبل التمكن من الاحاطة بشؤونها يظنها تحت سيادة نبلاء البلاد واغنيائها اذ يرى ثراءً شاسعاً بين اهل هذه الطبقة وبين اصحاب الصناعة واهل الكد والجد فيها وهم العدد الاكبر وذلك في استئثار الاولين بالرئاسة على الاحكام الاَّ فيما ندر رغماً عن ان بلوغها مباح للاستحقاق والفضل . وفي عيشتهم المنعمة البالغة حد البذخ والاسراف وفي ترفعهم عن مخالطة من هو دونهم او من هو من غير مرتبتهم — حالات قط ما وصلت اليها نبلاء واغنياء الشرق ذلك ما ادى للزحام الشديد بين طبقاتهم على ما يوصل الى هذا المقام الممتاز فلهذا ترى بينهم المخاطرين بكلما تملك ايديهم من عظام الدنيا للحصول على غنىً اوفر والمجازفين بمبلغ ما اعطوا من الفهم والفصاحة لاهاجة الخواطر او لاقناع السامعين بانهم خير من يتولى الزعامة وزمام الاحكام

"ولا خفاء ان الحضارة والتمدن الشاملين الآن الممالك الاوربية قائمان على اسس العلم والعدل والثروة فالعلم مباح للجميع على السواء . والعدل منوط بفئةٍ من القضاة يحكمون بموجب شرائع سُنَّتْ على مقتضيات الزمان والشؤون . والثروة ملك مشاع ومحجب يتهافت عليهِ كل فردٍ فالبعض يصيب منهُ قسماً وافرًا والبعض قسماً يسيرًا والبعض يكتفي على كرهٍ منهُ بالقوت اليومي لان الاقدار لن تقسّم الحظوظ على احكام فريضةٍ شرعية"

وقال في انتقاد حكوماتها لانها تبقي على العديمين

"واني لا اعجبُ من تلك الممالك البالغة شأوًا بعيدًا في الحكمة والحضارة والعمران والدائبة على مزاولة العلاجات الشافية لادواء الناس وسائر انواع الحيوان كيف هي نفسها تسمح بسكنى العديمين القتلة بين ظهرانيها قانعةً بمراقبتهم عن بعدٍ كأنَّ ضربها على ايديهم واستئصالها شأفتهم وصمة على تمدنها ومعرَّة على عدلها وانصافها . حقًّا ثم حقًّا ان في التمدن الاوربي الحالي مناقضات توجب ضحك الاجيال المستقبلة ان قُدّر لها الافاقة من غفلة ايامنا"

وقال في وصف محامد الاوربيين

"هذا بعض ما لاح لي ادراجهُ في موضوع هيئة اوربا الاجتماعية وعساني لا اكون مفرّطًا او مفرطًا فيما ابتغيتهُ عن المغمز في حضارتها وعمى الأيفهم من انتقادي خلو اهاليها ونظام ممالكها من الشيم الغراء والسجايا السامية والقوانين المحكمة الوضع لانهم بلغوا في عمل الاحسان والخير ما لم تبلغهُ دولة قبلهم حتى كادت عطاياهم وهباتهم السنية للمدارس والملاجيء الخيرية والمستشفيات والمعارف وجميع انواع الاكتشافات في العلوم والطب والجراحة وفي مجاهل الارض واغوارها ان تكون لجسامتها ومبالغها الطائلة من قبيل القصص والروايات البعيد تصديقها . فهم سريعو النهضة لمساعدة الجنس الانساني اينما كان وكيفما كان جنسهُ ودينهُ لا يسمعون بكارثة أَلمت بهِ في اي زاوية قصيَّة من زوايا الارض الاَّ اندفعوا لاعانتهِ عليها اندفاع السيل . كرام النفوس سخاة الاكف ان وعدوا وفوا وان اوعدوا انزلوا القضاء . يجلون اهل الفضل ولا يبخسون حق المجتهد . يحسنون تربية ولدانهم ويؤاسون شيوخهم . فهم قوم في هذه الخصوصيات بلغوا اعلى طباق المحامد لا يعوزهم سوى الوجه الباش . وقد بلغوا من الحكمة والدقة والبراعة وحسن التدبير في نظاماتهم العسكرية والقضائية والملكية والمالية مبلغًا شهدت بهِ امنع الممالك واقصاها واغمض الدعاوي واغلقها واعقد المسائل السياسية واشكلها وما نزف من جيوب اهل الشرق طُرًّا . فهم اقوام اتخذوا طلب المزيد في كل شيءٍ عقيدةً وحسبوا القناعة والوقوف في ما صاروا اليهِ عيًّا وتأخرًا"

واكثر ما في الكتاب وصف كما لا يخفى لانهُ خبر رحلة وقد ادمج فيهِ حقائق تاريخية كثيرة كقولهِ في وصف بقايا بومبي

"ان بومبي كانت مدينة عامرة انيقة يسكنها علية الرومان ويؤمها كبراؤهم على مدار فصول السنة استنشاقاً لهوائها البليل واستشفاء بمائها النمير لاعتقادهم انها وما جاورها من المصايف والقصبات احسن مناخاً واطيب هواء من سائر المدن الجنوبية فلهذا استجمعت على ما دلت الآثار كل صنوف الملاهي الرومانية واباحت ما تأباهُ الاعصر الخالية من انواع التهتك وضروب المجون. ففي يوم من ايام السنة التاسعة والسبعين للميلاد اطبقت بغتة عليها وعلى جارتها هركولانيوم وعلى قصبات عديدة حولها سحاب رمادٍ كثيف وظلمة من سيلهِ المتون اضاعت على الاهالي طريق النجاة. ذلك ان الجبل الناري فزوف ثار ثوراناً خارقاً للعادة وامطرها وامطر الجوار الى مسافات بعيدة ثلاثة ايام بلياليها دون انقطاع سيلاً هطّالاً من الرماد دفن المدينتين وما حوتا وارجع البحر بما القاهُ من الرماد على ساحلهِ مسافة اميال عن بومبي. وكنتُ قرأتُ اذ كنت يافعاً رواية لكاتب من الانكليز سماها "آخر ايام بومبي" اورد فيها حكاية خادمة وُلدت عمياء فلما نزلت النازلة واظلمت الدنيا بعيون الاهالي وضلّوا عن طريق النجاة قادت هذه العمياء وليها لان الظلمة لم تخفِ عنها طريقاً ألفت طروقها وهي عمياء كل حياتها ونجت واياهُ من التهلكة وما برحتُ الى اليوم اتذكرها واتوق الى رؤية مكانها حتى رأيتهُ"

ثم وصف ما رآهُ من آثارها فقال

"لما خرجتُ من بيت الآثار كما ذكرتُ استلمتُ طريقاً لا تحسب بعرف ايامنا وسيعة لان الاقدمين كما علمتُ لم يألفوا العرض في الطرقات فوجدتها مبلطة ببلاط كبير وسميك غير مربوع الزوايا على قول سادتنا البنائين يشبه في شكلهِ ووضعهِ ما يُرى حتى الآن في ما بقي من بقايا الطرقات الرومانية في بعض انحاء سورية ورأيتُ عليهِ اثر العجلات لكن دون ان يكون في الطريق مجال لمرور مركبتين تتعارضان ولهذا يُظن ان طرقاتها لم تكن لمرور مركبات الركوب بل لمرور عجلات النقل وربما مرور هذه ايضاً كان لهُ نظام مخصوص يمنع من وقوع تغارزها

"فدخلت اول بيت ازيح الغطاء عنهُ ايام الملك السابق فوجدتهُ بيتاً سفلياً وفي وسطهِ فسحة مربعة سماوية وحولها اروقة تظلل ابواب حجر على دائرها فمن الحجر ما هو متوسط الحجم ومنها ما هو صغيرهُ ليس لكبيرها ولا لصغيرها كوة او نافذة غير الباب كأنهم كانوا يستغنون عنها بالنور الداخل بالابواب من الفسحة السماوية لكن لا يعلم كيف كانوا يستغنون عن دخول الهواء الى الحجر

"ورأيت الحجر مفروشة بالفسيفساء التي يسمونها موزايك لكنها دون الفسيفساء المعروفة في الشرق في الدقة والتزويق والكلفة اذ ليست هذه غير كسير حجارة مربعة الشكل سوداء وبيضاء مصفوفة صفًّا بسيطًا . ثم دخلتُ الى بيت آخر فوجدتهُ يقاربهُ شكلاً ويخالفهُ تزويقًا والى ثالثٍ فكان كسابقيهِ او يزيد بوجود اركانٍ منصوب عليها تماثيل وتراقيم من المرمر او من المعدن ثم الى الرابع والخامس والسادس الخ وكلها بيوت سفلية يتوسطها فسحات سماوية في وسطها احواض من الرخام وانصاب للتماثيل والاصنام وعلى دوائرها اروقة او مماشٍ مسقوفة يُدخل منها الى المخادع والحجر الخالية من الكوى والملونة الحيطان والمنقوشة بالرسوم والتصاوير التي يستحيها الادب وينبو عنها طرف الحشمة وقد يوجد فيها تصاوير وقائع ميثولوجية كلها وقد مرَّ عليها ما يربو على ثمانية عشر قرنًا دفينةً تحت الثرى زاهية الالوان واضحة الرسم كأنها خرجت اليوم من يدي المصور والنقاش"

وذكر المؤلف في هذا الفصل ان سكان بومبي كانوا يصورون عورة الرجل ويتعوذون بها من العقم والمحل ولم نستحسن نشر ما كتبهُ من هذا القبيل فحذفناهُ فكتب الينا يعاتبنا على ذلك قال " لقد استفقدتُ عبارةً كنت اثبتُّها عند الكلام على بومبي .... ولم اجدها فلحظت انكم اسقطتموها عمدًا رعاية للعادة العصرية في اجتناب كلما ولو على بُعد يخدش اسماع القراء من قبيل الالفاظ الآيلة معانيها الى تلك الاعضاء . فالداعي واظنني لستُ اقل منكم اعتدادًا من النطق بها انما اوردتها في محلها وربما على كره مني احتفاظًا بحقيقة تاريخية لا مناص لي من ذكرها مغزاها انهم كانوا يتعوذون بصورة العضو المذكور من نوازل العقم والاعتال ويضعونها في ديارهم تميمة للخصب والاقبال . فالعجب من شؤون عصرنا اليوم كيف اوجب الحد على مثل تلك الالفاظ ولو تحجبت مدلولاتها بنقاب اديب يشف عنها واباح في المتنديات الصناعية والمعاهد الفنية وفي جميع المعارض العمومية والخصوصية وضع تماثيل ابن آدم ذكرًا وانثى متهتكة الاستار وصمد صورهُ كما نزل من بطن امهِ عريانًا لا بل في حالة يحمرُّ منها الخد ويندى لها الجبين وتعليقها في البيوت والاخدار . اليس في ذلك نظر يستلزم البحث في غموض احكام التمدن الحالي والتأمُّل في كيف اباح للنظر الاشد قابليةً للتأثر ما لا يبيحهُ للسمع . افيدوا وتفضلوا ان شئتم باثبات كتابي هذا في مقتطفكم الاغر"

هذا وبديهي اننا حذفنا العبارة التي اشار اليها لاننا واثقون ان كتاب رحلتهِ سيشيع كثيرًا ويقرأهُ ابناؤنا وبناتنا فلم نستحسن ان نبقي فيهِ ما يخجلون من التلفُّظ بهِ على مسمع من والديهم . وهذا الخجل عادة سواء كان بالرؤية او بالتلفُّظ وهي متملكة من اهالي بلادنا

لطول عهدهم بها فاذا حاولوا نزعها لم يتيسر لهم الاَّ بعد زمان طويل ولا بدَّ من ان يكون ذلك تدريجًا حتى لا تنفر منهُ الطباع . ويظهر لنا انهُ اذا الفت الاذن ما الفتهُ العين لم تعد تنفر ولا تخجل ممَّا تنفر وتخجل منهُ الآن

والكتاب كلهُ فوائد وفكاهات ننصح لكل احد ان يطالعهُ ويحتفظ بهِ . وهو مطبوع طبعًا حسنًا في مطبعة المقتطف

ابحاث المجتهدين

في الخلاف بين النصارى والمسلمين

تاليف نقولا افندي غبريل

هذا الكتاب من كتب الجدل النادرة التي يتوخَّى اصحابها ظهار الحق . ويظهر منهُ ان صاحبهُ واسع الاطلاع لا يقتصر في تأييد حجتهِ على التوراة والانجيل والقرآن والحديث وكتب التفسير بل يستشهد بكتب التاريخ ومباحث العاديَّات كما ترى في كلامهِ على الصلب وصحة التوراة فقد قال في الكلام على الصلب " ان يوسيفوس المؤرخ اليهودي قد اشار في تاريخهِ الى صلب المسيح قائلاً ان بيلاطس حكم على المسيح بالصلب بطلب رؤساء الكهنة بيننا والذين احبوا المسيح اولاً لم يتركوهُ وهم باقون للآن يدعون مسيحيين نسبة اليهِ . وكتب الحاخام يوحنان بن زكاتليذ هلل الشهير كتابًا في العبرانية منذ زمن قديم ذكر فيهِ حكم اليهود على المسيح بالصلب لادعائهِ انهُ ابن الله وانهم علقوهُ على شجرة خارج اورشليم . وكتاب التلمود ذكر عرضًا صلب المسيح . وذكرهُ تاستوس المؤرخ الوثني في الفصل الخامس عشر من مؤلفهِ المكتوب بعد المسيح بنحو اربعين سنة ناقلاً ذلك عن التقرير الرسمي المحفوظ في سجلات رومية . وقد اشار الى هذا التقرير فلافيوس جوستنيوس الفيلسوف عندما خاطب الامبراطور انطونينوس بيوس سنة ١٣٩ للمسيح واشار اليهِ العالم ترتوليانوس القرطاجني سنة ١٩٩ "

واستدلَّ على صحة التوراة من صدق ما جاء فيها من النبوات التي قيلت قبل اتمامها بسنين كثيرة كنبوَّة حزقيال الذي قال ولا يكون بعد رئيس من ارض مصر

اما الادلة في سائر فصول الكتاب فليست من هذا القبيل بل اكثرها قاصر على الآيات الكتابية والتفاسير النقلية والترجيحات العقلية

وثمن هذا الكتاب اربعة غروش وهو يطلب من مطبعة المعارف بالفجالة ومن المكتبة الانكليزية ومن مكاتب الاميركان بمصر والارياف ومن سائر المكاتب الشهيرة في القطر المصري